منديلُ العاشق

عبد العليم محمد إسماعيل ❖

أنزلتْ يديها المتشابكتيْن من تحت نهديها. أخذتْ حفنةً من التراب وقذفتْ بها الدولابَ المتوارثَ عبر سلسلةٍ من الفضائح. لم ترتّبْ أشياءها الخاصة جيّدًا. أدارت خصلتَها صوب النهر. رتقتْ خمسةَ جراح نازفة وهي تغازل الموج. قاربت الضفّةَ أكثر، فارتفع الموجُ إلى عينيها بغتة. الريح تطارد خصلاتِ شعرها المتفلّت بصورةٍ تنمّ عن موتٍ عزيزٍ لها. صعدتْ إلى أعلى دكّة الموج وهي تصيح: «طوبى لي... طوبى للعاشق!» لم يكن الطريقُ إلى القاع صعبًا؛ فاستقرّت على سعةٍ من أمرها.

وقف على دمه الساخن يتحسّس رائحةَ الفوضى. الضجيج في أقصى حالاته. أشار بإصبعه الفارغ صوب النهر. اصطدمتْ درّاجتُه بصفحة الجرار المندفع بسرعةٍ لا تليق بالسير داخل المدينة. لم يجد مناصًا غير اللحاق بـ «قدريشنو»؛ ذلك الباص الذي ينبّهك إلى كميّة التلوّث داخل هذه المدينة المقرفة. وقف على الشاطئ. مشّط الموجَ بنظرة مذعورة. همّ بالنزول، لكنّ الخوف الذي أصابه في منطقة الكاملين ـ حين وقع على قفاه في أحد جداول ريّ الزراعة ـ حرمه الرحلةَ إلى حيث يطمح. تراجع خطوةً إلى الوراء. جلس شابكًا يديه على هيئة «تمرين تسعة» في رياضات الجيش، سوى أنّ القدمين متجاورتان. أخذ يغنّي، ثم انبعث في ضحك هستيريّ.

أخرج المنديلَ الذي أهدته إيّاه في أوّل لقاءٍ بينهما. وضعه على عينيه. أزاحه عنهما؛ كانت الأشياءُ مبعثرةً تمامًا. أعاد المنديلَ مزةً أخرى، فسمع صوتَ الرصاص القويّ. أماط المنديلَ عن وجهه، فكان الدخان يتشكّل كسحب الخريف الألميّ. سحب كثيفة غطت مدينة أمّ درمان وهي تتوجّه كسحب أمّ رويق نحو مدينة الخرطوم. حيّره الأمر. أخذ ينشد أبياتًا، كيفما اتفق، لنزار قبّاني: «لو كنتَ حبيبي ساعدني كي أغرق... الموج بعينيك يأخذني نحو الأعمق...»

فجأةً، جلستْ موجةٌ بين يديه على هيئة طائر «أبو منقار» لم يدرِ ما يفعل. لم يتراجعْ هذه المرة من فوران الموج. الدخان يتصاعد أكثر فأكثر. الانفجارات وصوتُ الرصاص تتصاعد. عضّ على شفتيه بغبن. كاد ينحدر إلى القاع. لكن استوقفه منظرُ أهالي مدينة الخرطوم: الناس يعجّون في الطرقات؛ النساء نصفُ العاريات يحملن أطفالهنّ وهم يبكون من الألم. مقدّمات سحب الدخان عبرت النهر. الانفجارت على طول الشريط الساحليّ. نعم، إنّها الحربُ التي تتجاوز الذين ظُلموا خاصّة.

لم يبالِ بالأمر كثيرًا؛ كان معنيّاً بحربه مع الموج. حدّق في الموج مليّاً. صوتٌ من موجةٍ هادرةٍ يتغنّى. أرهف السمعَ: إنّه صوتُها المنبعث من أقصى القاع. كان غناءً مشبعًا بالعشب: «حبيبي تعال تعال نتلم، عشان الريد يختلط بالدم، عشان الريد يختلط بالدم، أنا ذنبي إيه شيّلوني الهمّ، يا حبيبي.» هي الأغنية ذاتها التي تردّدها وهي خارجة من الحمام. أعرفُها كما أعرف أغنيتها الشهيرة التي تردّدها الآن: «قرّبْ تعال ما تبتعد.»

أخذ بعضَ الأعشاب التي تتنامى حول النهر. لاكها بفرح. نظر إلى أعلى موجة. لم يتردّد هذه المرة؛ صعد دكّة الموج وهو يغنّي: «جينا ليك والشوق دفرنا، يا نشوق روحنا ودمرنا، يا محطّات الحنين القصّرتْ مشوار سفرنا.» لم يجد صعوبةً في ملامسة القاع. استقبلته ببسمتها المشوبة بالحزن وهي تقول: «كنتُ أتمنّى أن يكون هذا الاتحاد في حضرة المدينة والأصدقاء، لكنها الحرب. فنم يا حبيبي. هنيئًا لنا كلّ هذا الهدوء.»

السودان

❖ ـ أستاذ مساعد، كليّة الآداب، جامعة كردفان، السودان